حجاجية النادرة في "ماء النخالة" للجاحظ

د. آمال منصور
جامعة بسكرة-الجزائر

الملخص:

تتأسس هذه الدراسة على بيان مقومات الخطاب الحجاجي في نادرة من نوادر الجاحظ هي "ماء النخالة" في كتابه ذائع الصيت "البخلاء"، صحيح أن فكرة الدراسة ليست جديدة من حيث الموضوع، لكنها مختلفة من حيث المعالجة، وعليه تتوزع الدراسة على قسمين مهمين: **الأوّل**: تفكيك الأفعال المباشرة في خطاب النادرة.

أما الثاني: بيان مراحل التفاعل الحواري في نص النادرة.

و أخيرا: تمثيل عناصر الجهاز الحجاجي و أساليبه في نص النادرة.هي محاولة بسيطة لولوج الخطاب العربي القديم من منظور جديد.

Abstract :

This study is based on the description of the components of the argumentative speech in one of Al **Djahid's** anecdotes which is "The Bran's Water" in his famous book "The Misers". It's true that the theme of this study is not new, but different in its treatment. Thus, the study is divided into two important parts:

Part one: the dissociation of the direct acts into the anecdote's speech.

Part two: the description of the dialogic interaction in the text of the anecdote.

Finally, the assimilation of the elements of the argumentative speech and of its styles in the text of the anecdote is a simple essay to accede to the ancient Arab speech in a new perspective. .

قال تعالى:((و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)) الإسراء: الآية: 29.

استهلال:

لطالما كان الشعر ديوان العرب، و لطالما كانت القصيدة الجنس الأدبي الذي يعكس العبقرية العربيَة و يؤصل لها، فاستفحل فيه الفحول و نبغ في قراءته و تثمينه العقل النقدي،فطغى الشعر على الذوق و كان مرآة عصرهم و لسان حالهم.

لكن الشعر لم يكن المتن الثقافي الوحيد الذي يرمز للبراعة و التفوق الفني العربيَ،بل كانت هناك أشكال فنية تشاركه في الأهمية الموضوعية و في الجودة الفنية كالخطبة و المثل و الحكمة و النادرة، ولعل الجنس الأخير قد أخذ مكانة بين دفَات كتب القدامى و سطا على آذانهم لما فيه من رؤى صائبة و وجهة نظر ثاقبة و موقف هزلي يروَح على النفس ويترك مكانا في القلب لاينسى.

ولعلَ الجاحظ كان من أهم كتاب العربية الذين أصَلوا "للطرفة" أو "النادرة" ووضعوا لها القواعد*، و أطالوا عندها الوقوف لتصبح جنسا أدبيا له سطوته على الأذن العربيَة.

والنادرة أو الملحة أو الطرافة« جنس أدبي مخصوص ينزع منزع الطرافة و الفكاهة و الضحك»[1] في الظاهر، أما في باطنها فهي نقد اجتماعي يهدف إلى الإصلاح من خصائص أدب النوادر: الخفة و الظرف ويشترط في الفكاهي أن يكون صاحب ذكاء يجعله يبحث عن الحيلة ويتدبَر الخطط و ينسج خيوطها.

كما أنً أهم ميزة يبنى عليها فن النادرة في نظرنا هو قيمتها التواصلية، فهي دائما تفترض وجود مخاطب بالفعل تتعامل معه على أنَه كائن موجود يتفاعل مع موضوعها فينحاز إيجابا معها، للأنها تصوغ الحقيقة و تدعمها بالبراهين والحجج اللاذعة.

وربَما –بذلك– تتحول أكثر جنس أدبيَ صالح لأن يكون متنا ومجالا لمقاربة التداولية، وأداة حجاجية لا تختلف فيها اثنان.

لقد اختارت هذه الدراسة "البخلاء"للجاحظ مدوَنة لتطبيق آليات اللسانيات التداولية التي و لا شكَ أصبحت منهجا يقارب جميع النصوص، على الرغم من أنَها اختارت نفسها للنصوص التواصلية العاديَة دون النصوص الفنَية.

1- البنية الداخلية لخطاب النادرة:

لا يمكن حصر اللسانيات التداولية في "أوستن" أو "بيرس" أو "موريس"، فالجهود التي تضافرت لتأسيس صرحها متعددة و كثيرة، لا يمكن لهذه المقالة أن توفيها حقها، فالتداولية تداوليات بدءا من أرسطو وماركس و سوسير و بيرلمانوباختين و أبوستيل و ديكرو و اسكومبروهابرماز و فريج و كرايس و هانسون.

فإذا كانت التداولية في أشمل تعريفاتها حسب "آن ماري ديلر" Anne Marie Dillerو "فرانسوازريكانتيRicantiFrançoisهي:« دراسة استعمال اللَغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدرتهاالخطالبية »[2] .

فهي لا تبحث في تراكيبنا وتخضعها لميزان الخطأ والصواب شأن النحو، لكنها تهتم بما نقوله أثناء التواصل فهي تهتم باللَغة باعتبارها ظاهرة خطابية و تواصلية بحق.

وعلى هذا الأساس فهي تبث النفس مرة أخرى في المخطط الوظيفي لجاكبسون، وتهتم بوظيفة التأثير، يتجلى هذا في فكرة "أوستين" عندما (ساوى بين بنية اللغة و بنية الفكر، في محاضراته التي نشرت عام 1962 بعد وفاته بعنوان "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ"، فاللغة في مفهومه تتجاوز وظيفة التأثير، و تغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية)[3].

لعلَ هذا التعريف ينطبق –من بين تعريفات كثيرة– على نوادر الجاحظ في "البخلاء"، فعلى الرغم ممَا في الكتاب من طرافة و حيلة لطيفة، إلا أنَه

«إضاءة و تنوير »[4] ،« هداية و تعمير[5]»، لذلك استعان "الجاحظ" باللغة–و هو المحدث البارع و الناقد اللاذع[6]– فكانت ملاذه لتصوير آفة البخل و التأثير في متلقيه لنبذها.

و تصبح النادرة لديه جنسا تداوليا بامتياز بدءا بأفعال الكلام و حركيتها في الإقناع:

1-1-الأفعال الإنجازية و دورها في الإقناع:

إنَ نجاح الجاحظ في تحقيق قصد النادرة مرهون باستعماله الدقيق للغة، فاللغة مثلما شبهها "برتراند رسل" « Bertrand Russellبالمتفجرات، بحكم أن إضافة أدنى عنصر يمكنه أن يتسبب في آثار خطيرة، فكَروا إذن في كل تبعات تلفظ هتلر لكلمات "الحرب"[7] » .

إنَنا هنا نتبنى وجهة نظر "أوستن" بأنَ«الوحدة الدنيا للتواصل الإنساني، ليست هي الجملة بل هي استكمال إنجاز بعض أنماط الأفعال[8]»، فمثلا التلفظ بفعل "اعتذر" "أكَد" تغني عن جملة كاملة.

يتقمص الجاحظ في نوادره شخصية البخيل فيروي على لسانه، فيعرض ويحلل و يقدم الحجة البليغة المفيدة، لذلك أتت هذه الأحاديث متمفصلة إلى جزأين:

الأوَل: السَند وهو سلسلة الرواة الذين ينقلون الخبر إما معاينة أو سماعا[9].فهنا يقول: قال أصحابنا من المسجديين: لكنه يفصل في أهل السند، و يبين سبب روايتهم لهذه النادرة أو تلك: «اجتمع ناس في المسجد، ممن ينتحل الاقتصاد في النفقة و التثمير للمال، من أصحاب الجمع و المنع، و قد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذي يجمع على التحاب، و كالخلف الذي يجمع على التناصر. و كانوا إذا التقوا في حلقهم تذاكروا هذا الباب، وتطارجوه وتدارسوه، التماسا للفائدة، واستمتاعا بذكره[10]»

أما **الجزء الثَاني** هو **المتن**:و هو موضوع الخبر و إحداثه، و يقوم عادة على حيلة لطيفة بديعة قوامها المجاز و الإيجاز و بطلها بخيل من البخلاء.

1-1-1-الأفعال المباشرة:

- **فعل القول (التلفظ)**: ينسج الجاحظ النادرة في قالب موجز حتَى لا يثقل على سامعه و يضمن قوة التأثير والفهم، وبجمل قصيرة تترك وقعها وأثرها في نفس المتلقي.

- **فعل الإسناد**: رغم أنَ الجاحظ يلبس قناع الشخصية البخيلة و يتحدث بلسانها، إلاَ أنَه في الحقيقة يرمي إلى مشاركة متلقيه في معنى النادرة. لذلك هو يبلَغه بجميع المعلومات الكافية لتحقيق فهم أفضل للنادرة.**فعل الإنشاء**: قد يكون تأليف كتاب البخلاء –ككل– طلبا من أحد الأعيان، كما أورد ذلك المحقق د/محمد الاسكندراني، و استشهد يقول الجاحظ في مقدمته:«و أذكر لي نوادر البخلاء و احتجاج الأشحَاء»، لكن عدم ذكر اسم هذا الطالب يدعونا إلى الشك، فقد يكون قد خطر له أن يجمع نكت البخلاء و لم يجد حجة لذلك.

فالنادرة التي بين أيدينا– تحديدا– فيها رسم دقيق لنفسية البخيل الذي يتقن اختراع الأعذار و المبرَرات ليجعل من النخالة زادا وحيدا له و لعياله:« لم لا تطبخين لعيالنا من كل غداة نخالة؟» فهي تغنيه عن كل شيء فهي تعصم البطن و تغني عن تناول شيء آخر في اليوم.

- **فعل التأثير**: تحقق النادرة غايتها على الرغم من أنَها تبدو في ظاهرها قصَة مسلية فهي تعكس ضيق الحياة و بؤسها.

كما أن الجاحظ لم يعرض أهداف نوادره صراحة إلاَ أن القارئ الفطن يكتشف كيف تهاوت القيم العربية الأصيلة المبنية على الكرم والعطاء لتحلَ محلها قيم جديدة لا عهد للعربي بها، لحساب جمع المال.

1- البنية الخارجية للخطاب: حوارية النص:

يتأصّل الحجاج من روافد كثيرة أهمها خطابة أرسطو، لأنه انطلق من كون البلاغة(الخطابة) إنما هي«الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع[11]»، و هذا الإقناع يتوقف على ثلاثة أركان هي: أخلاق السَائل حجة(الاتيوس)، وتصيير السَامع في حالة نفسية ما (الباتوس)، و القول نفسه من حيث أنه يثبت أو يبدو أنه يثبت. كما يتطابق هذا المفهوم مع وجهة نظر السوفسطائيين لأنَها صابغة إقناع[12]).

والحجاج في اللغة: الغلبة بالحجج، جاء في لسان العرب: حاججته أحاجه حجاجا و محاجة حتَى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.

وفي قوله تعالى﴿ألم تر الذي حاجَ ابراهيم في ربَه﴾[13]، وقوله أيضا﴿فمن حاجَك فيه من بعد ما جاءك من العلم و قل تعالى ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثمَ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾[14].

والحقيقة أنَ القرآن خطاب حجاجي من الطراز الأول لكونه جاء ردا على خطابات تعتمد عقائد مختلفة عنه، لذلك اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلَة كما يقول الزركشي.

أمَا في النقد و البلاغة العربيين، فالجاحظ قد التفت للحجاج في أكثر من موضع، و وضع له تعريفا جامعا قال في كتابه"البيان و التبيين": قال بعض الهند: جمَاع البلاغة البصر بالحجة، و المعرفة بمواضع الفرصة[15]، وقال في موضع آخر: كان سهل بن هارون يقول: ((سياسة البلاغة أشدَ من البلاغة))[16].

أولى الجاحظ أهمية لمفهوم الحجاج و فصّل فيه ومارسه بجميع أشكاله في مناظراته و رسائله فنثره غنيَ بالتقنيات المؤسسة للحجاج، و ربَما يأتي في النادرة بصورة مبسطة لطبيعة هذا الجنس.

2-2- مراحل التفاعل الحواري:

يقوم الحوار في هذه النادرة على أربعة مراحل أساسية:

2-2-1- **مرحلة الافتتاح أو البدء:**

هي بمثابة تمهيد و تقوم فيه بتنبيه المحاور والإعلان عما سيأتي،ففيها نحدَد محل النزاع[17]، و هنا تتأسَس الحوا رية في "ماء النخالة" على أطروحة بسيطة و هي: شكوى المرسل من داء السعال، وبالتالي عليه أن يجد لذلك علاجا فعالا. فهذه الأطروحة لا تتطلَب اشتغال آليات المنطق ولا مبادئ الاستنتاج المنطقي، فيقدمها موجزة دون تعقيد ليضمن نجاح الحوار والاستيلاء على أذن المتلقي.

2-2-2- **مرحلة المواجهة:**

فيها نعمد إلى عرض الأحداث و الوقائع. إنَها مرحلة التساؤل مع إيجاد منفذ يكون ضروريا للإعلان و الإخبار و مطابق لكل الالتزامات و التعهدات[18]. تتميز هذه المرحلة بالإيجاز و الوضوح، حيث يعرض فيها الحلول التي أشار بها الناس عليه: "أمرني قوم بالفانيذ السكري، و أشار عليَ آخرون بالخزيرة. تتخذ من النشاشتج. و السكر، و دهن اللوز، و أشباه ذلك "

لكن المرسل يقدم هذه الحلول بنوع من السطحية، و كأنَه قرَر بدءا أنَ هذه الحلول غير مناسبة و عليه البحث عن أخرى.

2-2-3- **مرحلة التدليل و إقامة الحجة:**

فيها نقوم ببسط أدلتنا و حججنا مدَعين كنا أم معترضين[19]. فالجاحظ يعمل إلى تقمص شخصية البخيل في جميع نوادره، و يتعمق فيها لدرجة أنَه يعرف مبرَراتها، ويفهم دواخلها بدقَة، حتَى يخيل للمتلقي أنه واحد منها، لذلك هو يتقن الاحتجاج،ويسوقه بأسلوب بديع يقول:« فاستثقلت المؤونة، وكرهت الكلفة، و رجوت العافية، فبينا أنا أدافع الأيام، إذ قال لي بعض الموفقين: عليك بماء النخالة ، فاحسهحارا، فحسوت، فإذا هو طيب جدا، وإذا هو يعصم جدا، فما جعت و لااشتهيت الغداء في ذلك اليوم إلى الظهر. ثمَ ما فرغت من

غدائي و غسل يديَ، حتّى قاربت العصر، فلما قرب وقت غدائي من وقت عشائي، طويت العشاء وعرفت قصدي »[20]

فالجاحظ استعان بالصياغة اللفظية ليستولي على سمع متلقيه، فوظف "التوازي" في طرح مبرراته مثل:

تماثل في الصيغ الصرفية	تماثل في المواقع
كرهت	الكلفة
رجوت	العافية

تطابق	تماثل في المواقع	تطابق
فإذا هو	طيَب	جدا
فإذا هو	يعصم	جدا

وبذلك حقق إيقاعا سمعيا يجذب القارئ و يدفعه إلى البحث عن المعنى الباطن لهذه الصياغة فلغة الجاحظ« حمالة أوجه، تتنوع مقاصدها و تتشكل معانيها في سياق فني غير أحادي النظرة »

2-2-4- مرحلة الختم أو الإغلاق:

ينتظر في هذه المرحلة أن تتحقق الأهداف المتوخاة من الحوار، و الجاحظ يمتلك أصول الحوار و منطق الجدل، فلا يترك المتلقي يركز مليا في سوء طبع البخيل، يقدر ما يستحوذ على فكره و ابتسامته، بفضل الفكاهة الطريفة و الحجة الخفيفة، فالنخالة تحوّلت عند هذا البخيل حلا جيدا لجميع المعضلات:

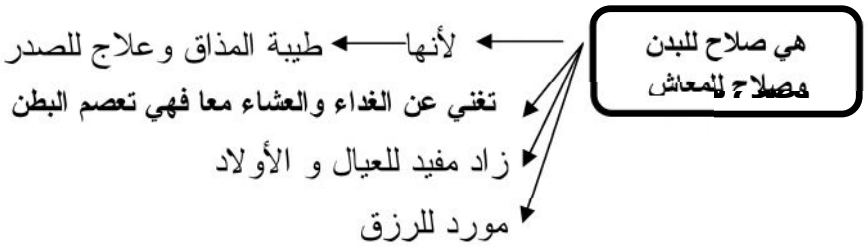

2-3-عناصر الجهاز الحجاجي في "ماء النخالة" و أساليبه:

إذا كان الحجاج حسب باتريك شارودو هو حاصل نصَي عن توليف بين مكونات مختلفة تتعلق بمقام ذي هدف إقناعي[21]، فإنَ الحجاج لا يتحقق إلاَ وفق علاقة ثلاثية حققها الجاحظ في نادرته و أولاها عناية بالغة:

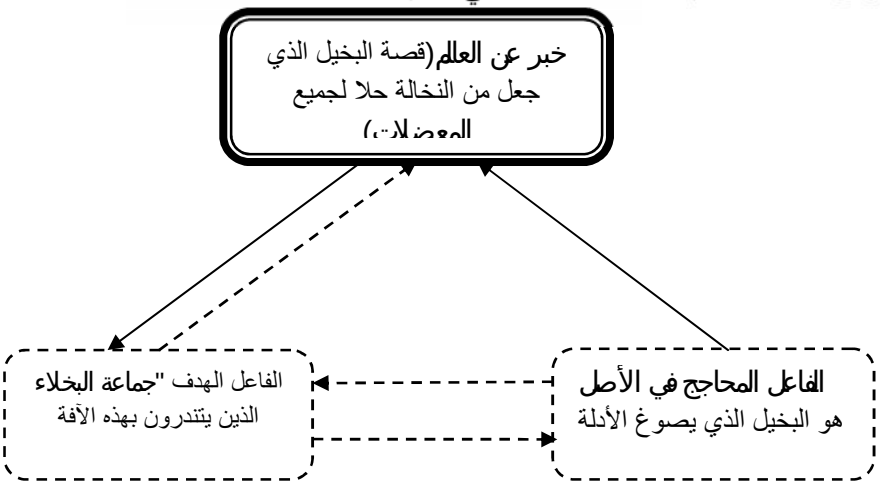

إننا لو دققنا النظر في هذه "النادرة" و في غيرها من النوادر لرأينا أن الجاحظ ينطلق من إدراك غيرمسبوق في قوانين التدليل، فهو يؤسس في هذا النص على ما يسمى عند باتريك شارودو: **بالبحث التأثيري**، حيث يتجه نحو مقاسمة الطرف الآخر -و هو قارئه بامتياز- نوعا من الكون القولي و يستدرجه بأسلوب ساخر مؤثر إلى الأخذ بنفس الأقوال.

خلاصة (وجهة نظر):

لا تنهض هذه الدراسة على قاعدة لغوية بحتة بقدر ما تحاول أن تجمع شتات المعرفة البلاغية و التداولية و النقدية... فهي بالتأكيد تؤمن بمفهوم الحوار البنَاء الذي تأسَس عليه الدرس العربيَ و الغربيَ القديم دون تمييز.لعلَهامحاولةبسيطة لولوج الكتابة القديمة لكشف سحرها و فنيتها العالية. و يبقى الجاحظ متنا غنيا للبحث و الكشف و الكتابة دون نقاش.

[1]- **الهوامش:**
*مثل الأصمعي و الفقيه الحنبلي، ابن قتيبة، أبي حيان التوحيدي، ابن عبد ربه، الابشيهي.
عبد الواحد التهامي العلمي، تجنيس النادرة "**بحث في المكونات و السمات**"، **عمان** (مجلة ثقافية شهرية)، **العدد** 142، **عمان، الاردن، ص**: 67.
[2]- فرانسوازأرمينيكو، المقاربة التداولية، سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، 1986، **ص**: 8.
[3]- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، **ص**: 53.
[4]- عمر بن بحر محبوب الجاحظ، البخلاء، محمد الاسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004، (**كلمة المحقق**)، **الصفحة**: 17.
[5]- المصدر نفسه، ص، 17.
[6]- المصدر نفسه، ص: 17.
[7]- فرانسوازارمينيكو، المقاربة التداولية، ص: 60.
[8]- المرجع نفسه، ص: 60.
[9]-**سطور حول نوادر الجاحظ**
http://ezedini.over-blog.com
[10]- **الجاحظ، البخلاء، ص**: 56،55.
[11]- **نقلا عن**: علي محمد علي سلمان، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، **ص**: 11.
[12]- المرجع نفسه، ص: 11.
[13]- **البقرة**: 258.
[14]- **آل عمران**: 61.
[15]- عمرو بن بحر محبوب الجاحظ، البيان و التبيين، عبد السلام هارون، ج1، **مكتبة** الخانجي، القاهرة، ط7، 1998، **ص**: 88.
[16]- المرجع نفسه، ص: 197.
[17]- حسن الباهي، الحوار و منهجية التفكير النقدي، افريقيا الشرق، المغرب، 2004، **ص**: 42.
[18]- المرجع نفسه، ص: 43.
[19]- المرجع نفسه، ص: 43.
[20]- **الجاحظ، البخلاء، ص**: 55، 56.
[21]- باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية و التطبيق، عن كتاب نحو المعنى و المبنى، أحمد الوردني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، 2009، **ص**: 16.